بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

يتناول هذا الكتاب موضوعات مختلفة، تتصل بالتراث والشعر واللغة، أما ما يتصل بالتراث فأربعة موضوعات، أوّلها يصوّر كيف أن التراث تعمّه وحدة دينية وعلمية، وهى وحدة هيَّأ لها القرآن الكريم مما أعدَّ - على مر العصور - لنشاط مطّرد فى التفسير والحديث النبوى والفقه، نهض به أئمة أفذاذ، كما نهض نظراء لهم بالتراث اللغوى والنحوى والبلاغى وبعلوم الأوائل والتاريخ، صادرين فى كل ذلك عن وحدة فكرية وعلمية دقيقة. والموضوع الثانى يصور ما أتاح القرآن الكريم للتراث الأدبى العربى من خصائص جمالية ظلت إلى اليوم قِوام وحدته فى الشعر ومقوماته الأساسية وما جدَّ فيه من موشحات وغير موشحات وفى النثر وما جدَّ فيه من مذاهب فنية ومقامات وغير مقامات. والموضوع الثالث هو إحياء التراث العربى وتجديده فى عصر المماليك بمصر والشام، وقد سماه المؤرخون العصر المغولى، ووصموه بأنه كان عصر انحطاط فى جميع شئون الحياة العقلية والأدبية، متناسين أننا سحقنا فيه جموع الصليبيين والمغول سحقًا ذريعًا. ويوضح هذا الموضوع كيف حافظ عصر المماليك على التراث العربى بإحياء نصوصه على نهج علمى دقيق وبوضع دوائر معارف فيه تسجله وتصونه، وكيف نمَّاه وجدَّد فيه، سواء فى علوم اللغة والنحو أو فى الدراسات الدينية من تفسير وفقه أو فى الكتابات التاريخية والاجتماعية، أو فى الكتابات الأدبية وما يتصل بها من الآداب الشعبية. والموضوع الرابع هو التراث بين أنصاره وخصومه، وهو يصوّر دعاوى الأخيرين وما يرمونه به من بُعْده عن الروح العلمية وما فيه من تكرار وجمود كما يزعمون، مع التهليل

للشعر الحر، ومع الدعوة إلى هَجْر الفصحى واصطناع العامية. وينقض الموضوع هذه الدعاوى نقضًا، مبيِّنًا أن التراث يحضّ على طلب العلم حتى ليجعله فريضة، ويتحدث عن شيوع الشروح والحواشى والتقارير فيه، ويقول إنها دوائر معارف واسعة. ويصور ما فى دعوة الشعر الحر من إسراف فى التجديد، كما يصور ما فى الدعوة إلى العامية من هدم للعروبة وكيْد للإسلام. ويتحدث عن مرونة الفصحى واتساع طاقاتها إلى أقصى حدّ مما أتاح لها أن تكون لغة خالدة على مرّ الزمان.

ويتصل بالشعر فى الكتاب سبعة موضوعات، أولها أربع مقالات بعنوان «حول الشعر» كتبتها فى بواكير حياتى وأنا طالب بالسنة الثالثة فى كلية الآداب، وكنت قد نشرتها بمجلة الرسالة، ورأيت أن أعيد نشرها للمقارنة بين ما كتبته قديمًا فى النقد الأدبى وما كتبته حديثًا، وكيف أن الأسلوب واحد لم يتغير مع الزمن. وكان أوّل مقال نشرته فى المجلة المذكورة عن قضية الوضوح والغموض فى الشعر، وتلوته بمقال عن ماهية الشعر وعناصره، وبمقال عن رسالة الشاعر وأنها ليست التثقيف ولا بثّ الفلسفة والأخلاق وإنما التغنى بالجمال والعواطف غناءً موسيقيًا، وأتبعت ذلك بمقال عن صلة الشعر بالفنون وخاصة صلته بفنى الرسم والموسيقى. والموضوع الثانى: «القديم الجديد فى الشعر» وكيف أن الشعر لا يوصف بقدم ولا هرم لتعبيره عن الطبيعة البشرية وحقائق النفس الإنسانية وهى ثابتة خالدة، وهو ما جعل الشعر خالدًا، لأنها جوهره كما تشهد بذلك نماذجه الكبرى عند ابن سينا وابن الشبل البغدادى وأبى العلاء المعرى بما صوروا من تأملات فى الإنسان والكون والوجود، وبالمثل أشعار الصوفية وما تحمل من وَلَهٍ ملتاع، وأيضًا أشعار المديح لما تحمل فى مقدماتها من مشاعر الحب الإنسانى من الحكم والخبرات الثابتة، وما تصوِّر من أمجاد أسلافنا الحربية التى ستظل تغذّى الأجيال العربية غذاء بطوليا رائعا. والموضوع الثالث فى الشعر: «العروبة فى شعر أبى تمام» وهو يصور أحاسيسه بمجد العرب الحربى منذ العصر الجاهلى وكيف تحول بهذا المجد فى عصره إلى أناشيد حربية يتغنى فيها ببطولات العرب وقوادهم واستبسالهم فى قتال الأعداء حتى يُلْقُوا عن يَدٍ وهم أذلاء صاغرون.

والموضوع الرابع «الإيقاع الموسيقى فى شعر ابن زيدون» وهو يعرض تكامل هذا الايقاع فى الشعر العربى وكيف اصطفى البحترى لشعره ألحانًا موسيقية رائعة، ومنه تناول ابن زيدون القيثارة ولحن عليها أنغامًا بديعة، لعلها أبدع ألحان شعرية عرفتها الأندلس. والموضوع الخامس: «سجل شعرى تاريخى فريد» وهو يصور كيف أن الشعر العربى كان دائمًا سجلًا تاريخيًا لأحداث عصره وكيف أن شعر على بن المقرَّب العُيونى شاعر الأحْساء والبحرين منذ أواخر القرن السادس حتى نهاية العقد الثالث من القرن السابع يحمل تاريخ دولة العيونيين فى الأحْساء والقَطيف والبَحْرين وكل ما اتصل به من أحداث مما لا نجد له أثرًا واضحًا فى كتب التاريخ. والموضوع السادس: «حافظ وشوقى وزعامة مصر الأدبية» على شقيقاتها العربيات وهو يعرض تلك الزعامة قديمًا فى النثر والشعر على يد القاضى الفاضل وابن سناء الملك حين أصبحت لمصر الزعامة الحربية على يد صلاح الدين، واستمرت الزعامتان جميعًا إلى أن انتكستا فى الحقب العثمانية. وأعاد لمصر زعامتها - بقوة - فى الشعر البارودى وتلميذاه: «حافظ وشوقى» وقد مضيا يثبِّتانها حتى أصبحت صرحًا باذخًا بما زرعا فى قلوب الشعوب العربية من ضغينة وحقد على الاستعمار البغيض حتى تقلَّم أظفاره، وتردّه عن ديارها خاسئًا مدحورًا. وظلا يبثان الحماسة فى صدور تلك الشعوب بأشعار وطنية وقومية عربية وإسلامية نبوية وفرعونية مصرية حتى يثور العرب ويقضوا على المستعمرين قضاء مبرمًا، وحتى يستعيدوا دورهم التاريخى العريق. والموضوع السابع: «صلاح عبد الصبور والشعر الحر الجديد» وهو يتحدث عنَ المراحل الأولى لتجربة الشعر الحر وما نشب حولها من معركة عنيفة مع بيان حاجة هذا النمط الشعرى الجديد إلى توطيد صلته بالتراث الشعرى وإيقاعه الموسيقى وصياغته الناصعة، ثم يتحدث الموضوع عن مضمون الشعر عند «صلاح» وما يداخله من حيرة وقلق ونشدان للحرية والعدالة، ويبين تمثل صلاح لإيقاع الشعر الموروث وأن هذا التمثل يتضح عنده فى كثير من منظوماته. ويؤكد الموضوع أنه ينبغى فى استخدام الكلمات اليومية فى الشعر أن ترتفع عن مستواها اليومى إلى مستوى الأداء الشعرى الممزوج بروعة الخيال.

ويشتمل البحث فى اللغة على ثلاثة موضوعات:

الموضوع الأول: فى اللغة «الفصحى المعاصرة» وهو يعرض تطورها فى العصر العباسى بما حملت من ألفاظ حضارية ومصطلحات علمية، كما يعرض تطورها المماثل فى العصر الحديث، مع بيان دور الصحافة فى سهولة أساليبها وما وسعته من فنون نثرية جديدة كفنى المقالة والقصة.

والموضوع الثانى: فى اللغة «لغة المسرح بين العامية والفصحى» وهو يتحدث فى إجمال عن تاريخ المسرح المصرى وما مُثِّل عليه من مسرحيات عامية وفصيحة، ويفصِّل القول فى مسرحية «مصر الجديد ومصر القديمة» لفرح أنطون وقد جمع فيها بين الفصحى والعامية فجعل الفصحى لشخوص الطبقة العليا والعامية لشخوص الطبقة الدنيا، واقترح لغة ثالثة وسطى للسيدات سماها «فصحى مخففة»، وبذلك تحمل المسرحية عنده عدة صور من الأداء اللغوى. وحاول توفيق الحكيم استخدام لغة وسطى بين الفصحى والعامية فى مسرحيتيه: «الصفقة» و «الورطة». ومع طرافة المحاولة يلاحظ أنها استبقت غير قليل من ألفاظ العامة ونطقهم غير السَّوىِّ.

والموضوع الثالث: «اللغة بين الكلمتين: المسموعة والمقروءة» وهو يصور كيف أن لغة الأدب فى الجاهلية بفرعيه من الشعر والنثر كانت لغة مسموعة وما خلَّفه ذلك فيها من الخصائص النغمية، وكيف أن الأدب حين تحول نهائيًا فى العصر العباسى من أدب اللغة المسموعة إلى أدب اللغة المقروءة ظل - وخاصة فى الشعر - يحتفظ بالخصائص النغمية للغة المسموعة، حتى إذا كان العصر الحديث واتسعت مخاطبة الأدب للجماهير القارئة عن طريق الطباعة والصحف نشأت فيه لغة مبسطة حتى يشيع فى الناس وتقرأه الطبقة الشعبية دون أى مشقة، وظهرت الإذاعة، فعاد أدبًا مسموعًا، يسمعه،فى أرجاء العالم، الأمى وغير الأمى، مما دفع أصحاب الأدب الذى يذاع إلى أن تكون لغتهم أكثر تبسيطًا من لغة الأدب الصحفى، ولا ريب أن ذلك يؤذن بنشوء أدب إذاعى أكثر قربًا إلى لغة

الحياة اليومية المسموعة المتداولة، والأمل أن ينهض بذلك الإذاعيون أنفسهم فيكون من بينهم أدباء موهوبون يبدعون هذا الأدب الإذاعى المنشود. والله ولىّ الهدى والتوفيق.

القاهرة فى أول ديسمبر سنة ١٩٨٧م

شوقى ضيف

obeikandl.com